الأدب فى سير أعلامه :

٧ ـ تولستوى

[قمة من القمم الشوامخ فى أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه]

للأستاذ محمود الخفيف

بين الجد واللهو

ودع تولستوى قازان وفى نفسه أنه ودع اللهو والعبث فما إليهما من عودة ، وبلغ ياسنايا تلك الضيعة المحبوبة وقد زاده محبة لها أنها غدت من نصيبه ، وإنه ليشعر أنه أصبح مسؤولا عنها وعمن يعيش فيها من الناس ؛ ولقد زاد هذا الشعور لا ريب فى نفسه العزم أن يطلق حياة اللعب والعبث ...

ثم إن فكرة تسيطر على لبه اليوم وتملأ جوانب نفسه ، ومؤداها أن يعمل فى جد على إصلاح حال الفلاحين فى الضيعة وما جاورها ، فما يليق به أن يذرهم فيما هم فيه من جهل وبؤس .

وتستمع إليه العمة تاتيانا دهشة مبتسمة فما يخرج الأمر عندها عن أن يكون نزعة جديدة من نزعات الشباب ؛ ولكنه يعود كل يوم إلى هذا الحديث وإنه لأقوى عزماً وأكثر جداً ؛ وإن تفكيره فى هذا الأمر ليصرفه عن القراءة وعن الموسيقى التى أحبها حباً عميقاً خبرته عمته ؛ وإنها لتجلس إلى البيانو تحاول أن تمتعه بلحن مما يحب فما يروعها إلا انصرافه عنها وعن لحنها ليقبل على حديث إصلاح الفلاحين ...

وتعجب عمته ويزداد عجبها إذ تراه يتخذ لنفسه زياً خاصاً به يعتزم أن يلبسه فى كل وقت وفى كل مكان لأنه يظهره فى مظهر الفيلسوف ؛ ولكن الفتى لا يلبث حتى يخلع هذا الرداء ويلقى به لأن أحد الزائرين لم يتمالك نفسه ذات مرة من الضحك من مظهره ، وكره الفتى أن يكون موضع استهزاء ، وهو الذى طالما تأنق وتنبل بالثياب ...

هذه الأسماء طوعاً من تلقاء ذاته فهنا فقط يكون الشبه واضحاً بين هذه الحالة وحالة تحليل الأحلام . فعنصر الحلم كذلك ليس هو ما أبحث عنه وإنما هو عوض عن شيء آخر ، وهذا الشيء الآخر هو ما لا أعرفه وما أسعى إلى اكتشافه عن طريق تحليل الحلم . ما ذا أفعل إذاً لأتذكر الاسم الذى نسيته ؟ إن ما يحدث هو أنى أوجه التفاتى إلى هذا الاسم الذى خطر على بالى عوضاً عن الإسم المنسى ثم أحاول أن أدع أسماء أخرى تتوارد على خاطرى فى ترابط مطلق ، وبهذه الطريقة أستطيع أن أصل فى النهاية إلى الاسم الذى نسيته . ومن المشاهد فى مثل هذه الحالات أنى عندما أتذكر هذا الإسم ألاحظ دائماً أن هناك علاقة بينه وبين الأسماء التى تركتها تخطر على بالى عوضاً عنه . فقد حدث لى مثلا أن حاولت فى يوم ما أن أتذكر اسم القطر الصغير الذى يقع على ضفاف الريفييرا والذى عاصمته « مونتكارلو » ولكنى لم أستطع على الرغم من تأكدى من معرفته . فأخذت أفكر فى كل من أعرف فى هذا القطر وما كان لى فيه من علاقات ولكن بلاجدوى . وأخيراً كففت عن التفكير وتركت أسماء أخرى تتوارد على خاطرى طواعية واختياراً . وقد توالت هذه الأسماء بسرعة وهى مونتكارلو نفسها ثم بيدمون ، ومونتفيدو ، ومونتنجرو ، وكوليكو . وقد لاحظت أن ثلاثة من هذه الأسماء البديلة تحتوى على نفس المقطع « مون » وفى الحال تذكرت الاسم الذى أبحث عنه وهو « مونا كو » ومن هذا ترون أن هذه الأسماء البديلة قد نشأت فعلا عن الاسم المنسى ، فالثلاثة الأسماء الأولى تحتوى على المقطع الأول « مون » والإسم الرابع يحتوى على المقطع الأخير « كو » أما السبب فى هذا النسيان المؤقت فهو أن « مونا كو » هى الاسم لأيطالى « لونيخ » وقد كانت لى ذكريات فى هذه المدينة هى التى وقفت حائلا بينى وبين تذكر الاسم الذى أريد .

وعلى هذا فما هو ممكن فى حالة نسيان الأسماء لابد أن يكون ممكناً كذلك فى حالة تفسير الأحلام فإذا ابتدأنا من العناصر البديلة فأنه لابد أن نصل فى النهاية إلى غرضنا الحقيقى عن طريق سلسلة من الأفكار المترابطة ، كما أنه فى استطاعتنا (كما هو الحال فى نسيان الأسماء) أن نفرض أن هذه الأفكار التى نشأت عن عنصر الحلم لم يحددها هذا العنصر فحسب بل حددتها أيضاً الدوافع اللاشعورية التى أنتجت الحلم . فإن أمكن هذا فإننا نكون بذلك قد قطعنا شوطاً بعيداً فى تبرير طريقتنا فى التفسير . المترجم

(يتبع)

محمد جمال الدين سمره

وما الذى ألقى فى قلب الفتى هـذه الرغبة القوية فى إصلاح حال الفلاحين ؟ أهى مجرد نزعة من نزعات الشباب حقاً ؟ أم هى خيال ألقاه فى نفسه قراءة قصة حديثة تسمى « القرية » ألفها قصصى يدعى جريجوروفتش وصور فيها حياة الفلاحين ، صورة مؤلمة تبعث فى النفوس شعور الرثاء لحالهم ؟ أم أن مرد ذلك إلى عاطفة عرف بها منذ طفولته وهى أنه يحب أن يرى الناس جميعاً حوله سعداء ؟ الحق أن الفتى ما كان ليستطيع أن يرى مظاهر البؤس من حوله ثم لا يتحرك لها قلبه الإنسانى الرحيم ، وكيف كان يطيق أن يسمع فيما سمع أن امرأة قضت نحبها من الجهد ، وأن المرض يفتك بالناس فلا يستطيعون له دفعاً ؛ وكيف كان يطيق أن يرى بعض الفلاحين يخرون على قدميه سجداً يسألونه القوت ؛ لقد كان ذلك يؤلمه أشد الألم أو كما يقول « إن ذلك كان يؤلمنى كما تؤلمنى ذكرى جريمة ارتكبت ولم يكفر عنها » .

على أنه يعجب أشد العجب من إعراض الفلاحين عن إصلاحاته ؛ ويألم إذ يرى فى وجوههم الشك والإنكار والعناد ، وإذ يسمع أنهم يصفون مابنى لهم من أكواخ جديدة بأنها سجون وأنهم يرمون بالمدارس التى افتتحها لأبنائهم والتى كان يعلمهم فيها بنفسه أحياناً ، فعندهم أن هذه المدارس تحرمهم من معاونة أبنائهم إياهم فى أعمال الزراعة ؛ ويقلب تولستوى كفيه حائراً من أمرهم ، وفى نفسه شعور الغضب ومرارة الخيبة ...

ولا يلبث اليأس أن يصرفه عما شرع فيه ، فينصرف عنه مكرهاً لأنه كان شديد التعلق به ، يدلنا على ذلك ما جاء فى قصة كتبها بعد سنوات قليلة ، هى القصة المسماة « صباح أحد الملوك » فقد صور فيها أميراً يحلم بأن يعلم الفلاحين ويسعدهم ويوفر لهم أقواتهم ، ويصلح رذائلهم التى تنجم من الجهل والتعلق بالخرافات ويجعلهم يحبون الهدى والحق ؛ وفى هذه القصة يترك الأمير الجامعة ليعود إلى القرية ويكتب إلى عمته يرغبته فى إصلاح حال الفلاحين فى ضياعه قائلا بعد أن يصف مبلغ بؤسهم : « أليس واجبى الواضح المقدس أن أعنى بحال هذه الأنفس السمحة التى سوف يسألنى الله عنها حساباً ؛ ثم أليس من الإجرام أن أجرى وراء أنماط من اللهو والطمع بينما أدعهم لمشايخ أو رؤساء هم عليهم خشن غلاظ ؟ ولم أبحث فى نواحى أخرى عما عسى أن يظهرنى بمظهر الرجل النافع الخير فى حين أن أمامى هذا الواجب الوضيء النبيل الذى أعرفه من وثوق وخبرة ؟ » .

ولم يكن يدور بخلده أن يجد من الفلاحين هذا الجمود ، فما أشد ما كره ما كان فيه من جد وما أسرع ما أقبل على لهوه وعبثه ، وقد نما إليه أن أخاه سيرجى يعيش مع غجرية مغنية عيشة مطلقة من كل قيد فى ضيعته ؛ فخيب إليه عبث أخيه أن يعود هو كذلك إلى عبثه ، فأقبل على المجون واللعب وأسرف فى ذلك إسرافاً شديداً وبخاصة فى مخالطة النساء مخالطة لا تأثم منها ولا تورع فيها حتى لقد أحدثت آثارها فى بدنه القوى أو كادت ، وحتى لقد عاد الفتى إلى سالف ندمه فانه يكتب فى يومياته فى منتصف شهر يونيو سنة ١٨٤٧ يقول « ما أصعب على من يقع تحت تأثير الشر أن يزيد ما تنطوى عليه نفسه من خير ... هل أبلغ بعد الأمد الذى أجدنى فيه مستقلا عن المؤثرات الخارجية ؟ إن ذلك معناه فى رأيى الوصول إلى كمال عظيم ، حيث أنه فى حال الرجل الذى يتخلص من العوامل الخارجية تسيطر الروح على الجانب المادى منه بالضرورة فيبلغ ما يريد ؛ وسأضع اليوم لنفسى قاعدة جديدة وهى أن الاجتماع بالنساء إن هو إلا شر من شرور المجتمع لا بد منه ، وعلى المرء أن يتجنبه ما استطاع ؛ وممن نتعلم فى الواقع الشهوة والخنوثة والتفاهية فى كل شىء إن لم نتعلمه من النساء ؟ وعلى من نقع تبعة فقداننا تلك المشاعر الفريزية فينا كالشجاعة والمناعة والبأس والتصبر والعدالة إن لم تقع على المرأة ؟ إن المرأة أشد استجابة من الرجل للمؤثرات ، وكانت فى عصور الفضيلة خيراً منا ، ولكنها الآن فى عصر الفساد والرذيلة قد باتت أسوأ منا وأرذل » .

وتلمح إليه العمة تاتيانا ذات يوم بقولها « إنه لا شىء يكون الشاب خيراً مما يكونه ارتباطه بفتاة ذات خلق » ؛ ولكن توثب حيويته وعرامة فتوته وحبه الاستقلال ، كل أولئك يحيل به عن أن يركن إلى ما تقول ...

وسيكبر هذا الفتى وقد ذاق حلو الحياة ومرها فيكون له من ذلك مادة لفنه وسيفيد من لهوه هذا كما يفيد من جده ، فما ينسى شيئاً مما تطالعه به الحياة ، وسوف نرى نظرته هذه إلى المرأة سنة ١٨٤٧ وهو فى التاسعة عشرة ، تتجدد فى قصة يكتبها سنة ١٨٨٩ وهو فى الحادية والستين ، وهى قصة كروتزرسناتا .

لم يعد للفتى أمل فى إصلاح فلاحيه وأحس أنه يقضى أيامه

فى ياسنايا عبثاً فصمم على الرحيل منها ، وفى شهر أكتوبر سنة ١٨٤٨ سافر إلى موسكو حيث قضى ثلاثة أشهر أو أربعة مطلق العنان لا يلويه عن العبث واللهو شىء ، وله من فراغه وشبابه وماله ما يزيد جموحه ويمد فى حبال غوايته ؛ ثم سافر الفتى إلى بطرسبرج فدخل جامعتها ليدرس القانون ثانية ويحصل على درجة علمية تهيئه للالتحاق بوظيفة من الوظائف المدنية .

* * *

وأقبل الفتى على الدراسة فى جد وعزم كأن لم يعرف اللعب يوماً ؛ وكتب إلى أخيه فى فبراير سنة ١٨٤٩ يخبره بما هو فيه من جد ، وينبئه بأنه سيبقى فى بطرسبرج إلى الأبد ؛ ويصف له فى كتابه مبلغ ما للحياة فى هذه المدينة من أثر فى نفسه ، فكل شىء يبعث على الجد والتأب ، وكل امرئ يسعى سعيه حتى لن يجد المرء من يصحبه إلى حياة عابثة ، ولن يستطيع المرء أن يحيا هذه الحياة وحده إلى أن يقول لأخيه « أعلم أنك لن تصدق أنى غيرت ما بنفسى وأنك ستقول إنها المرة العشرون ولكن فى غير جدوى ؛ كلا ... لقد تغيرت الآن ... وفوق ذلك فانى اليوم يداخلنى إحساس بأن المرء لا يستطيع أن يعيش بالنظريات والتفلسف ، ولكنه ينبغى أن يحيا حياة واقعية ، أعنى أنه يجب أن يسلك سلوكا عملياً ... وهذه خطوة واسعة نحو التقدم » .

وفى شهر أبريل يجتاز ليو امتحاناً فى القانون المدنى والقانون الجنائى بتفوق ملحوظ ؛ على أن ذلك لم يكن فى الواقع ثمرة جهد متصل وإنما كان ثمرة أسبوعين استوعب فيهما ما استطاع أن يستوعبه من هاتين المادتين ...

وفى شهر مايو يكتب لأخيه فاذا به يقول فى كتابه « أى سير يوشا ... أتوقع أنك سوف تقول إنى أكثر من عرفت ضعف عزيمة ، ولكى أكون أميناً ، ينبغى أن أقول إن الله يعلم ماذا كنت أفعل هنا ! ... لقد جئت بطرسبرج بغير سبب معين ، ولم أعمل هنا عملا ذا عائدة ، وقصارای أنى أنفقت مالا كثيراً حتى لقد تورطت فى الدين ؛ يالغباء ! وأى غباء ؟ لن تستطيع أن تصدق كيف يؤلمنى ذلك ، وبخاصة تلك الديون التى يجب أن أؤديها بأسرع ما فى وسعى ، وذلك لأننى إن لم أفعل فلست أفقد المال فحسب ، بل أفقد معه شرف سمعتى . أعلم أنك ستضج بالشكوى ، ولكن ماذا عسى أن أصنع ؟ إن الإنسان يقترف مثل هذه الحماقة مرة فى مدى عمره ... وإنى لأركن إلى عطفك إذ أرجو منك أن تتدبر فى إخراجى من هذا الوضع الكريه حيث أجدنى مفلساً يحيط بى الدين من كل جانب » .

ويعتزم الفتى أن يلتحق بالجيش فى فرقة الفرسان متطوعاً فى الحرب ، وأن يترك جامعة بطرسبرج دون أن يتم دراسته فيها كما ترك جامعة قازان من قبل وكانت الحرب التى يريد أن يتطوع فيها هى تلك الحرب الظالمة التى قذفت بها النمسا الأحرار المجاهدين فى المجر ، أولئك البواسل الذين رغبوا فى الاستقلال عنها وردوا جيشها وقد عصفت العواصف بأنحاء الامبراطورية حتى استعانت بالجيش الروسى لجاء لمعونتها خمسون ومائتى ألف من هذا الجيش ، وكانت روسيا تريد أن تطفىء نار الثورة فى المجر حتى لا تمتد إلى بولندة وكانت تحت حكمها فتخلع عنها نير الاحتلال ؛ ومن عجب أن يتجه تولستوى إلى التطوع فى حرب ظالمة كهذه الحرب وهو الذى سوف يكون فى غده من أكبر الساخطين على العدوان وعلى الحرب أيا كانت بواعثها ...

وكان لزاماً على من يتطوع أن يقضى سنتين فى صحبة الجيش العامل قبل أن يسمح له بحمل السلاح والقتال ، ولكن تولستوى كان يطمع أن يتخذ مكانه فى الصفوف قبل انتهاء هذه المدة بما عسى أن يبدى من مهارة وقوة ، وإن خياله ليسهل له كل شىء فما إن يفكر فى أمر حتى يحسبه حقيقة واقعة ، وإنه ليحدث نفسه بأن عمله فى الجيش سوف يكسبه خبرة بالحياة والناس ، وسوف يخلق منه شخصاً جديداً ، إذ أنه بهذا العمل ينجو مما يغريه به الفراغ والشباب من عبث ولهو ...

ولكنه لا يلبث إلا قليلا حتى يكتب لأخيه يقول له : « أثبت فى كتابى الأخير إليك كثيراً من اللغو ، وكان أبرزه ما أشرت إليه من رغبة فى التحاق بفرقة الفرسان ، وسوف لا أفعل ذلك إلا إذا فشلت فى امتحاناتى أو إذا كانت الحرب ذات خطر » .

وجاء الربيع يبعث البهجة والحياة فى كل حى ، وطافت بخيال الفتى مجاليه فى أسحاره وآصاله ، هناك فى ضيعته المحبوبة ياسنايا بوليانا ، فسرعان ما انطلق من جامعة بطرسبرج كما انطلق قبل من جامعة قازان ، وسرعان ما أبعد عن فكره وخياله العمل فى الجيش وفى الوظائف المدنية جميعاً ، ثم أقبل على ياسنايا ، وليس فى نفسه هذه المرة من عزم إلا تعلم الموسيقى !

(يتبع)

المفيد